# دار الهـــوى

## في عيد القمر

للدكتور زكي مبارك

— أخي الأستاذ الزيات

هل تذكر أني وجهت إليك مقالاً من بغداد عن « القلب الغريب في ليلة عيد » منذ نحو أربع سنين ؟ وهل تذكر أني تشوقت إلى دار تحب العيد وتحن إليه لأنها تراني مع العيد ؟

ذلك مقالٌ قبستُه من نار قلبي، وأخذت مداده من دمي، وأرسلتُه تحيةً إلى دارٍ عظُمت ديونُها على قلمي

وإنما وجّهت إليك ذلك المقال لأثير في روحك التشوُّف إلى تعليل ما تعاني الأرواح من متاعب ليس لها في الظاهر سناد

— من مطالب المجد في هذا الوجود

فهل فكرت في تعليل هذا المعنى ؟

وهل حاولتَ الدفاع عن الأعمار التي تضيع في تشريع نوازع الوجدان ؟

أنا أطالبك بالرجوع إلى الوجدانيات ، بجانب ما أقبلت عليه من الاجتماعيات ، فقد كاد الأدب يخلو من الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب . ولا قيمة للأدب إن أغفل الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب

وإليك القصة الآنية :

— في حفلة من حفلات إحدى الطوائف المسيحية تسابقَ الحاضرون لتقبيل يد البطريرك ، فرأيته ينهض بقوة ليعانق من يسارعون إلى التسليم عليه ، مع أنه فيما سمعت قد جاوز التسعين

وعندئذ غلبني الفكر الفلسفي فقلت لجاري في المحفل : إن راحة رجال الدين من هموم الحياة تمنحهم طول الصحة والعافية

فقال جاري بتحمس : كيف ترى ذلك وغبطة البطريرك يحمل هموم الطائفة كلها ، ويعنّي نفسه بالدقائق الخفية لجميع البيوت ؟

فقلت : التاعب الفردية أعنف من المتاعب العمومية ، فالرجل الذي يحمل هموم بيت يُعدُّ أهله بالآحاد أشق من الرجل الذي يحمل هموم طائفة يُعدّ أبناؤها بالألوف أو الملايين . وهل يحزن وزير المعارف لسوء نتائج الامتحانات العمومية بقدر ما يحزن لو رسب ابنه في الامتحان ؟

إحساسنا الصادق يصدُر عن متاعبنا الذاتية أولاً وقبل كل شيء ، ثم يتفرّع فيتصل بالمجتمع القريب أو البعيد ، وهل بكى النبي محمد لوفاة أي طفل كما بكى لوفاة ابنه إبراهيم ؟

وإذن يكون من حق أن أقول إن الأدب الذي يصوِّر الذاتيات هو أصدق الآداب ، وهو الآية الباقية على الصدق الأصيل ، فمن الجناية على الأدب أن نشغل أقلامنا بهموم خارجية قبل أن نستوفي التعبير عن همومنا الداخلية

للمجتمع حقوق على القلم البليغ ، يوم يتأثر الكاتب بتلك الحقوق ، ويوم يرى أنه عن تأييدها مسئول أمام الضمير الأدبي لا أمام الناس

وأنت ذلك الكاتب ، يا صديقي ، فاتجاهاتك الاجتماعية تشهد بأنك تحس آلام المجتمع أصدق إحساس ، وسيكون لك في هذا الميدان مكان يحفظه التاريخ

وأنا أرتضي لنفسي ما أرتضي لك ، لولا تلك الدار التي أسرَتْ قلبي عدداً من السنين ، ولم أستطع التحرر من أسرها بأي جهاد

إن تاب الله عليّ من الهيام بتلك الدار فسأجاريك في ميدانك ، وسيطول بيني وبينك السجال ، ولكني أرى الله أكرم من أن يجود بذلك المتاب ، لأن نعمته عليّ في هذه الضلالة أعظم من نعمته بالهداية على من يغضّون أبصارهم عن سحر الجمال

وهل كان من العبث أن يتفضل الله فينوّع الخلائق بهذا الوجود ؟

إنه نوّع الخلائق لينوّع العواطف

هل تذكر ما تصنع النسائم بالسحاب والرمال ؟

رأيت بالأمس عجباً من العجب : رأيت سُحُباً مطرزة بسماء « مصر الجديدة » على أظرف ما يكون التطريز . وبدا لي أن أجوب الصحراء في ذلك الوقت فرأيت النسائم صنعت بالرمال ذلك الصنيع

أيعجز قلم الكاتب الصوّال عما يقدر عليه النسيم الجوّال ؟

النسيم يَعبَث ، وما وُصِف النسيم بغير العبَث ، ثم تكون له القدرة على هذا الافتتان ، فكيف نعجز فى الجد عما استطاعه النسيم فى الهزل ؟

الدار التى أهوى تُضلنى وتغل عقلى بأوثق الأغلال

الدار التى أهوى تصنع بقلبى فوق ما تصنع النسائم العوابث بالسحائب والرمال

الدار التى أهوى حُرِمت أضواء المصابيح أكثر من شهرين ، إلى مَعَاد ، أو إلى غير مَعَاد ، فما أدرى ما تُضمر الأقدار لمصاير ذلك الهوى النبيل ، ولا أعرف متى نلتقى طائعين أو كارهين

كلُّ يومٍ لنا عتابٌ جديدٌ ينقضى دهرنا ونحن غِضابُ

إن تلاقينا ـ ومتى التلاقى ـ فستكون لنا شؤون وشجون

إن عادت الدار إلى العهد الذى أعرف فسأكون من الحجاج فى العام المقبل ، وسأنفق جميع أموالى على الفقراء والمساكين .

ثم ما ذا ؟

ثم أقص على الأستاذ الزيات هذا الحديث :

فى صباح اليوم وأنا فى طريقى إلى الواجب قرأت فى إحدى الجرائد أن المحكمة الشرعية أعلنت أن شهر ذى الحجة يبتدئ بيوم الأربعاء ، فعرفت أننى حُرِمتُ رؤية الهلال ثلاث ليال . ثم خف حزنى حين تذكرت أن القمر غاب عن تلك الدار أكثر من شهرين

ما هذه اللجاجة فى الحب ؟

وما الطمع فى كرم الزمان البخيل ؟

إرجعوا إلى الدار ، دار الهوى ، قبل أن تسمعوا من نذير الأقدار ما لا تحبون

إرجعوا إلى دار الهوى فى عيد القمر غير مأمورين

إرجعوا ، فللدار التى شهدتْ مولد هوانا حقوق

إرجعوا ، فالفضيحة فى غرامى تكريم وتشريف ، لأنى قيثارة الغرام فى ألحان الخلود

عيد القمر آتٍ بعد ليال ، فهل أراكم فى غرة تلك الليال ؟

القمر يفى ، فهل تَفُون ؟

القمر يصاير الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف ، فهل تسايرون أحوالى من زق وطيش وقرار وجمود ؟

أنا أنا ، فهل أنتم أنتم ؟

لقد صبرتُ وصابرتُ لتشهد أحجار تلك الدار أن لها بقايا من الوفاء التى تدّخره كرام القلوب

سينطق الحجر قبل أن تنطقوا ، ولقد نطق لحيّانى ألوف المرات وأنتم فى غيابة العقوق

وماذا تنتظر منى تلك الأحجار ؟

إنها ترجو منى ما أرجو منكم ، ترجو سلاماً من عابر سبيل ، وأنتم هددتم وتوعدتم بأنْ لا لقاء فى غير الفضاء

عودوا إلى الدار ، دار الهوى ، عودوا إليها سالمين غانمين ، فإنى أعدّ لكم قتالاً ألطف وأرفق من السلام

عودوا إلى الدار فى عيد القمر ، وهو آت بعد ليال

عودوا إلىّ فما قلبى بمصطبر على نواكم ولا فى العمر متسعُ

إن متُّ قبل لقاكم أو فقدتكمُ قبل الممات لحظى عاثرٌ ظَلِعُ

أنا فى انتظار القمر بعيد القمر ، فهل يعود مع العيد ؟ وهل أشهد كلَف جبينه وهو غضبان ؟

عودوا إلى الدار لا إلىّ ، فقد كادت أحجارها تذوب من نار الاشتياق

يا غاضبين علينا كيف حالكمُ وكيف دارٌ بها للروح مرتبَعُ

دارٌ جَلَوْنا بها حيناً سرائرنا كأن أيامها فى صَفْوها جُمَعُ

لم يُغدق الله فضلاً فاق نعمتهُ بوصل روحى بكم والشمل مجتمعُ

أما بعد فما رأىُ صديقى الزيات فى هذا الحديث ؟ وهل يرانى فى ضلال وأنا أناجيه بما لا يريد بعد أن هجر صديقه لامرتين ؟

حال العين حال القلب ، وللعيون والقلوب أحوال

وقد أشار طبيبى بنظّارة تمنع التشرد من أضواء عينى ، فمتى يشير طبيبى بنظارة تمنع التشرد من أضواء قلبى ؟

لن يكون لقلبى حدود . لن تكون تلك الحدود ولن تكون ، وسيعجز الطب عن جمع الأشعة من أنوار القلوب

متى نلتقى يا دار هواى ؟ متى ؟

عيدُ القمر آتٍ بعد ليال ، فهل نتقاتل بعد ليال ؟

زكى مبارك